مجموعة المتحف الوطني للآثار القديمة والفنون الإسلامية من خلال الفأل والتطير في ميراثنا الشعبي

د.نبيلة حسانى *

التطير[١] والفأل[٢] يعتبران من المظاهر الاجتماعية الشائعه في مجتمع المغرب الإسلامي، و في الأمم والشعوب على مر التاريخ الإنساني الطويل، وهما من المعتقدات التي اعتمدها الفكر الجاهلي في سلوكيات شتى،واستمر وجودها إلى ما بعد الإسلام رغم دحضه لكل ما يعوق الفكر من خرافات وأساطير[٣]،بل ما زالت بصماتها بارزة حتى يومنا هذا، ورثها بعض المغاربة ضمن ما ورثه المجتمع من معتقدات، وعادات وقيم اجتماعية.

يلاحظ أنه كان وما يزال للمرأة دور في الحفاظ على بعض الممارسات والمعتقدات التي ارتبطت ارتباطا وطيدا بهاتين الظاهرتين، وقبل أن نكشف عن بعض مظاهر التطير والفألفى بحثنا يجدر بنا الوقوف ـ ولو بعجالة ـ عند مدلول هاتين الكلمتين في القرآن والسنة لمعرفة موقف الأصول منها:

التطير من خلال القرآن الكريم :

وردت في القرآن الكريم كلمات متعلقة بالتطير يستحسن أن نقف عند بعضها لندرك موقف الإسلام من هذه الظاهرة:

---

* كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ـ قسم التاريخ ـ الجزائر .

١ الطيرة: مصدر تطير، ويقال تطيرت من الشيء وبالشيء ، والاسم منه الطيرة بكسر الطاء وفتح الياء (وقد تسكن الياء) وهو ما يتشاءم به من الفأل الرديء ابن منظور: لسان العرب، مجلد ٢، ص ١٠٤٣. وهي فيما يكره كالفأل فيما يستحسن، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء ، نفسه ، ص ١٠٤٣ .

٢ الفأل: ضد الطيرة، والجمع منه فؤول وأفؤل، وأصل الكلمة الحسنة يسمعها عليل فيتأول منها ما يدل على شفائه لسان العرب، م، س، مجدل٢، ص ٦٣٦ ، أو يسمع طالب ضالة آخر يقول يا واحد، فيقول تفاءلت بكذا ويتوجه له في ظنه كما سمع، نفسه ، ص ١٠٤٢، وقد يكون الفأل فيما يحسن، وفيما يسوء، وفي نوادر الأعراب يقال: لا فأل عليك بمعنى لا طير عليك ، ولا طير عليك، ولا شر عليك، نفسه، ص ١٠٤٢ . وكان مذهب العرب في الفأل والطيرة واحد فأثبت الرسول (ص) الفأل واستحسنه وأبطل الطيرة ونهى عنها ،لسان العرب، مجلد٢، ص ٦٣٦، ذلك لأن الفأل فيه رجاء، والرجاء عائدة البلاء، نفسه ، ص ١٠٤٣ .

٣ يعتبر إنكار القرآن والسنة لظاهرة التطير دليلا على تجدرها في العصر الجاهلي واستمرار وجودها في عصر الرسول صلى الله عليه وسلّم.

قال تعالى في سورة النمل:" قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون[٤] ،قالوا تطيرنا بك وبمن معك.قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون" [٥].

" تطيرنا بك وبمن معك " أي تشاءمنا منك يا صالح ومن أتباعك المؤمنين إنكم سبب ما حل بنا من بلاء ـ وكانوا قد أصابهم القحط والمجاعة ـ " طائركم عند الله " أي حظكم من الحقيقة من خير أو شر هو عند الله وبقضائه، إن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم. ولما لاطفهم صالح في الخطاب أغلظوا له في الجواب، وقالوا تشاءمنا منك وبمن معك فأخبرهم أن شؤمهم بسبب عملهم لا بسببه هو والمؤمنين [٦].

تكشف محاورة النبي صالح لقومه عن استنكار للطيرة متحدثا معهم بمنطق النبوة .

وتزداد الصورة وضوحا في سورة يس حيث قال تعالي: " قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين[٧] قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم قالوا طائركم معكم أين ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون"[٨].

" إنا تطيرنا بكم " قال أهل القرية [٩] إنا تشاءمنا بكم وبدعوتكم لنا على الإيمان، وترك عبادة الأوثان، قال المفسرون: ووجه تشاؤمهم بالرسل[١٠] أنهم دعوهم إلى دين غير دينهم فاستغربوه، واستقبحوه، فتشاءموا بما دعوا إليه، ثم توعدوا بالرسل إن لم ينتهوا عن دعوتهم ليرجموهم بالحجارة حتى يموتوا.

" قالوا طائركم معكم " أي قالت الرسل ليس شؤمكم بسببنا وإنما شؤمكم بسبب كفركم وعصيانكم وسوء أعمالكم.

يتجلى بوضوح إنكار الإسلام للتطير وما محاورة الأنبياء للقوم الكافرين إلا تأكيد لذلك.

---

٤ الآية ٤٦ من سورة النمل.

٥ الآية ٤٧ من سورة النمل.

٦ محمد علي الصابوني:صفوة التفاسير،قصر الكتاب البليدة وشركة الشهاب الجزائر ،ط٥ ، ١٩٧٠، ج٢، ص ٣٧٩.

٧ الآية ١٦ ، ١٧ من سورة يس

٨ الآية ١٨ و ١٩ من سورة يس

٩ حسب المفسرين أن القرية المقصودة هي أنطاكية،ينظر، محمد علي الصابوني : م س، ج٣، ص ٠٧.

١٠ المقصود بهم صادق، ومصدوق، وشمعون، ينظر،محمد علي الصابوني : م، س، ج٣، ص ٠٧.

التطير والفأل من خلال الحديث النبوي:

روى الإمام أحمد بن حنبل عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه أنكر الطيرة حين سئل عنها قال ثلاث مرات " لا طائر "[١١]، وذكروا أنه صلّى الله عليه وسلّم قال " لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صقر"[١٢] وقد أورد بعضهم تتمة الحديث الشريف " لا عدوى ولا هامة ولا طيرة، وأحب الفال الصالح "[١٣] يكشف الحديث الشريف أن الرسول صلّى الله عليه وسلّم قد أقر الفأل الحسن، وشجع على التفاؤل، وأبطل الطيرة ونهى عنها لأنها تحد من فعالية الفرد، وتحول بينه وبين مواصلة عمله الجاد، أما إقرار الفأل فيعني إقرار كل ما من شأنه أن يحث على الجد والمثابرة والمضي قدما.

التطير والفأل في ميراثنا الشعبي:

إن تتبع هاتين الظاهرتين (التطير والفأل) من خلال بعض نصوص ، يساعد على تحليل بعض الظواهر الاجتماعية، والكشف عن أسباب سلوكيات، ومعتقدات شعبية معينة، وبالتالي إدراك الذهنية السائدة آنذاك، لكننا لم نقف عليهما كموضوع متكامل في مؤلف من المؤلفات التاريخية والفقهية أو الأدبية في المغرب والأندلس،بل جمعنا الشذرات من هنا وهناك لتتضح الصورة أكثر، وتقصينا النشاط النسوي اجتماعيا واقتصاديا لكشف النقاب عن مدى مساهمة هذا العنصر في الحفاظ على هاتين الظاهرتين باعتباره الملقن الأساسي للقيم الاجتماعية للنشء ـ ذكورا كانوا أم إناثا ـ وباعتباره الذاكرة المرجعية للعادات والتقاليد الشعبية.

التفـــاؤل والممارسات الاحتفالية:

ما يتعلق بالأعراس : التفاؤل ببعض المواد والأدوات .

الحنـــاء:

كان من الضروري أن تضعها العروس على رئسها عند ذهابها على الحمام الذي يسبق الدخلة، وأن تخضب يديها ورجليها قبل أن تزف إلى زوجها[١٤] كما كانت تخضب بها كذلك يد العريس[١٥].

---

١١ الإمام أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد،تح، أحمد محمد شاكر، دار المعارف،ة مصر، ج٢، ص ٣٨٧.

١٢ نفسه ،ج٢، ص ٣٨٧،

١٣ مسلم : صحيح مسلم، ج٦، ص ٦٥.

١٤ ابن الحاج: المدخل ، ج١، ص ١٨٦

١٥ نفسه، ج١، ص ١٨٦

الخبز والمفاتيح :

ذلك أن العروس عندما تصل إلى عتبة بيت الزوجية تقدم لها النكافات خبزتين تضعهما تحت إبطها، ومجموعة من المفاتيح، فالخبز ربما لتكون مصدر رزق ! أما المفاتيح فربما لتكون الزوجة مفتاح خير على زوجها [١٦].

الحليب والبيض:

تقدم الحامة الحليب والتمر للعروس قبل دخول بيت الزوج حتى تسعد حياتهما معا[١٧]

.

العجين:

تقوم العروسة بعد سبعة أيام بعجن الخبز حتى تصبح أيامها كلها خيرا وبركة عليها[١٨].

التفـــاؤل ببعض الحيوانات: الحمام

:

لقد شغف الكثيرون من الناس قديما وحديثا بتربية الحمام[١٩]، لأن رؤيتها توحي بالأنس والألفة، وسجعها يثير العواطف المرهفة، ويفجر الأحاسيس الكامنة، لذا تفاءلوا بالنظر إليها، وطربوا لسماع هديلها، وشاطرها الشعراء أفراحها وأحزانها، واستعملوها للتعبير عن الحسن والحرية، وتفاءلوا بها للقاء الأحبة .

السمـــك : في

اليوم السابع من الزفاف، تهيء العروس طبق السمك لأنه " يجلب حسن الحظ" [٢٠]

التفـــاؤل بالصوف:

كانت أغلب الأسر المغربية تتفاءل خيرا بالصوف ،فالبيت الذي يكثر فيه الصوف هو بيت عامر، وتستنبط الفتيات والنساء مصيرهن المجهول من عملية فتح جزة الصوف أول مرة،ويتفاءلن أو يتطرين من الهيئة التي تكون عليها عند فتحها، ومن طوب التراب

---

[١٦] هسبريس ، ١٩٢١، عدد١، ص ٤١.

١٧ حسب الرواية الشفوية في دول المغرب العربي.

١٨ حسب الرواية الشفوية في دول المغرب العربي.

١٩ لوطونرو : فاس قبل الحماية ، تر،محمد حجي،ومحمد الأخضر،ط١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ج٢، ص، ٧٤٥، ما كانت هذه الظاهرة لتبرز في يومنا هذا إذا لم تكن قد استمرت من العهود القديمة إلى زمن دراستنا، وإلى عصرنا هذا، إذا مازلنا نرى بعض الأسر المغربية تربيها فوق السطوح.

٢٠ نفسه،ج٢، ص ٧٤٩.

المتواجد بها أو من الأوساخ العالقة بها،أو من تحركاتها عند وضعها في الماء[٢١]

التطير في

الممارسات الاحتفالية :

زواج فردين أو أكثر من نفس العائلة في يوم واحد، أو في أيام متقاربة، يؤدي على موت إحدى العروسين، ويقال:" عروس تنطح عروس"، لذا يستحسن أن يكون الزواج متباعدا قدر الإمكان[٢٢] .

التطير والممارسات اليومية:

من عطست خلال عملية تسدية القماش يعتقد أن ذلك يؤدي على موت الصانعة أو أحد أقاربها [٢٣]، عند إفراغ السدي لحياكة قماش ما، يتطير من انتماء العاملتين المتناوبتين على ذلك إلى نفس الأسرة أو العائلة إذ يعتقد أن ذلك يجلب لهما التعاسة[٢٤].

يتضح من كل ما ذكر أن بعض النساء كن فعلا خارج المسار الصحيح وذلك لقلة وعيهن، وعدم تعلمهن، وتشبثهن بما ورثنه عن جداتهن وأمهاتهن من ميراث يمت للجاهلية بصلة وطيدة وعلى الرغم من ذلك نعتقد أن ضرب الحصار عليهن إجحاف في حقهن، فقعودهن في بيوتهن لم يبعدهن على ارتكاب المناكر، فكان حري بمعشر العلماء والفقهاء والرجال عامة، أن يفسحوا المجال لتعليم المرأة، وأن يؤكدوا ويحثوا على ذلك، فالحياة الرتيبة بين جدران البيت أمر خطير، ليس على حياة المرأة وحدها ! بل على أسرتها، ومجتمعها بأكمله، فتصبح معه كالسائمة لا تملك من أمرها شيئا، وتبحث عن تعويض حرمانها من الخروج والمشاركة في الحياة العامة بشتى الوسائل الانتقامية، فيكثر كيدها ويتسع حرقها للشريعة الإسلامية.

وكان المتحف الوطني للآثار القديمة والفنون الإسلامية بالجزائر ،بمثابة الوعاء الذي حوى ضروب الثقافة والعلم من الشواهد الأثرية ما يؤكد هذه الحقيقة وخاصة في العصر العثماني. ومن بين محتويات المتحف نجد قدرة الفنان على بعث الحياة الاجتماعية والفنية بمفهومها الشامل على كافة أنواع المواد والخامات فنجد هناك مرآة من المرايا وعليها زخارف نباتية من ورق العنب، والعنب يدل على الرزق الوافر لصاحب المرآة.

نجد أيضا من التحف الجميلة دلاية عقد (خمسة) من الفضة، مما يدل دلالة على أن العروس تتفاءل بوضعها على صدرها، وصندوق العروس تحمله عندما تزف إلى بيت

٢١ لوطونرو: فاس قبل الحماية، ص ١٤١.
٢٢ حسب الرواية الشفوية .
٢٣ مجلة هسبريس،١٩٢١،ع١، ص ١٤٩.
٢٤ نفســه، ص ١٤٩.

عريسها وهو مزخرف بزخارف نباتية وعليه رسم الطاووس، وكثيرا ما تفاءل به سكان المغرب الإسلامي، وصحن من الخزف به رسومات نباتية وطاووس، له نفس المعتقد الشعبي.

ووقع الاختيار أيضا على بعض من التحف العظيمة وهي فناجين مرصعة بالمرجان وهي من الأحجار الكريمة، وهي تعتبر من بين الأحجار التي تجلب الحظ والرزق. وكذلك يحتوي المتحف على مجموعة كبيرة من التحف المهمة والتي عليها كتابات قرآنية، كإبريق من النحاس الذي عليه عبارات في غاية من الدقة والجمال، والقرآن عموما يحمي صاحبه في العرف الإسلامي.

وهناك تحفة من صينية بعبارات بالخط النسخي برموز سحرية كنوع من درء الضرر أو كوسيلة من وسائل العلاج النفسي.

إن تتبع هاتين الظاهرتين (التطير والفأل) من خلال بعض التحف، يساعد على تحليل بعض الظواهر الاجتماعية، والكشف عن أسباب سلوكيات ، ومعتقدات شعبية معينة، وبالتالي إدراك الذهنية السائدة آنذاك والمحافظة على الذاكرة المرجعية للعادات والتقاليد الشعبية.

المصادر والمراجع

*القرآن

ـ حنبل، أحمد بن الإمام:

* مسند الإمام أحمد،تح، أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر.

ـ ابن الحاج، أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي (ت٧٣٧هـ/١٣٣٦م):

* المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسن النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد التي انحلت وبيان شناعتها وقبحها، مكتبة جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، ط١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

ـ مسلم،الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشري النيسابوري(٢٦١هـ/٨٦٣م):

* صحيح مسلم، تحقيق، محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة أول ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ـ لوطونرو :

*فاس قبل الحماية ، تر،محمد حجي،ومحمد الأخضر،ط١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

* مجلة هسبريس ، ١٩٢١، عدد١.

صور الفأل والتطير في ميراثنا الشعبي.
من خلال مجموعة التحف الوطني للآثار القديمة والفنون الإسلامية.

حجر المرجان

التبرك بآيات قرآنيه

سمك